الفصل الأول

جولة قصيرة
في الآفاق القرآنية

اشتقاق كلمة "القرآن"

القرآن لغةً: مصدر "قَرَأَ" بمعنى القراءةِ وبمعنى الجمعِ والضمِّ.

إنه كتابٌ جامعٌ يجمعُ الأجزاءَ المتفرِّقة ويؤلِّفها ويصوغُ وحدةً متكامِلَةً منها، ليس هناك أمرٌ لم يتطرَّقْ إليه القرآن، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٣٨/٦)، أي ما تركنا شيئًا لم يُذكر في القرآن، بل ذكرنا فيه كلَّ شيءٍ، ولكن جرى الحديث عن بعض الأمور صراحةً، وبعضِها بإشارة، وآخر بِرَمْز، وآخر بِطَرف العين...

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة يُوسُفَ: ١١١/١٢)، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٥٩/٦)؛ فكل شيء -بدءًا من الذرات والجُزَيْئات وانتهاءً بالمجرَّات- مذكورٌ في القرآن، ولكن كلٌّ على حسب قدرِهِ وقيمته ومستواه؛ وحسبَ موقعه بين الحقائق القرآنية.

والرسول ﷺ يقول: "مَا فِي كِتَابِ اللهِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ"[٦].

---

(٦) عبد الله بن المبارك: الزهد والرقائق، ٢٣/٢؛ الطحاوي: شرح مشكل الآثار، ١٠٩/٨.

فلكلِّ آيةٍ ظاهرٌ وباطنٌ؛ ولكل حرفٍ وتفسيرٍ وتأويلٍ وقراءةٍ وكيفيةِ إنزالٍ حدٌّ، فيها تكمن حقائقُ إلهيّةٌ، فالباطنة منها لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، ولكل حدٍّ معنى سيُطْلعه الله تعالى ويُظهِرُه حيث يشاء.

ويقول الإمام جعفر الصادقُ ﷺ: "واللهِ لقد تجلّى اللهُ تعالى لِخَلقه في كلامه (أو: بِكلامه) ولكن لا يشعرون"(٧). نعم، إنّكم عندما تقرؤون القرآن كأنّكم تَرون الله تباركَ وتعالى، لأن القرآن ترجمانٌ يُظهر جميعَ الشؤون الذاتية لله ﷻ، واللهُ أشعرَ في القرآن بمظاهر وتجلّياتِ أفعاله وصفاته بشكلٍ يليقُ بِعَظَمَتِهِ ويتناسبُ مع استعدادات القلوب، فإذا قُرئ القرآن بالترتيل والتأني، ومع التدبّر في معانيه، وإعطاءِ كلِّ حرفٍ وكلمةٍ حقَّها؛ فإنّ القارئَ يترقّى ليصلَ إلى مقامِ "القُرْبِ من الله" إلى أن يتجلى الله له، وفي النهاية يتحقَّق له مقام "الجَمْع"(٨)... وهذا المعنى هو مما تنطوي عليه كلمة "القُرْآن".

وأما كلمة "الفُرْقان" فلها معنى غير الذي في كلمة "القرآن"، فإنها تشير إلى "الفرق" بين الخَلْق والحَقِّ تعالى، وتكشف عن سِرِّ العلاقة بين "العبد" و"المعبود".

---

(٧) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ١/٤٥٢.

(٨) "الجمع" لدى أرباب التصوّف هو تخصيص النظر ووقفه على الحقّ تعالى وحده، وتخصيص الشعور به وحده، وتخصيص الحسّ به وحده، والتبرّي ذوقًا وحالًا من الدنيا وما فيها من الأشياء، بحيث لا يراها ولا يشعرُ بها، والانغلاقُ دون ما سوى الله تعالى قلبًا، والتوجُّهُ إليه تعالى وحده، ومعرفته وحده والشعورُ به وحده ومشاهدته -حسب درجةِ معرفتِهِ- ونجاةٌ من الوقوع في التفرُّق والتشتُّتِ قصدًا بالنظر لغيره تعالى والانشغال به.

أما "الفرق" فهو مشاهدةُ الوحدة من خلال الكثرة، ومشاهدةُ الكثرةِ من خلال الوحدة بوضوح تام؛ وهو رؤيةُ الخلق منظورًا إليه من أفق المعرفة التامة لذات البارئ سبحانه، والحفاظُ على التوازن بين معية الحقِّ تعالى وبين التواجد بين الخلق.

ففي "الجمع" المعرفة والمحبة والأذواق الروحانية؛ أما "الفرق" الذي يحتوي على "الجمع" فهو إبلاغ الآخرين هذه المعرفة، والمحبة، والذوق الروحاني والأحوال التي تعقبها، ولهذا قالوا: "إن من لا فرق له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له"، ولأجل هذا فلدى أربابه: "لا بد للعبد منهما". (فتح الله كولن: التلال الزمردية-٢، مقالًا: "الجمع" و"الفرق").

و"القرآنُ" يُعَبِّرُ عن معرفة العبدِ بالله، لأن القرآن "جَمْعٌ"، وكلَّما اقترب الإنسان من الله تعالى على الوجه الذي يقدّمه القرآن عَرف اللهَ، ويصل به هذا الحال إلى أنه كلَّما قرأَ القرآنَ شعرَ وكأن الله هو الذي يُكلِّمه.

فبهذا المعنى سواء أقلنا: "القرآن" أم "الفرقان" فسنعلم أن ما يتمّ التفكُّر فيه في هذا الكتاب المقدَّسِ هو صفات الله وأسماؤه وآثاره، وسنُدْرِكُ أنه أقرب إلينا من حبلِ الوريد... وفي هذه النقطة النهائية التي هي أفق الكمال سيكون الله ﷻ سَمْعَنا الذي نسمع به، وبَصَرَنا الذي نُبصِرُ به، ويدَنا التي نبطشُ بها -بعبارة الحديث القدسي-، وكذلك يكون لسانَنا الذي ننطق به، وفؤادَنا الذي يستوعب الحقائق العظيمة... وهكذا سنسمع ونبصر باسم الله، ونفكر ونتكلم باسم الله، ونتخذ القرارات بحيث تُرضي الله... فالقرآن يتحدث عن هذا، وهو ترجمانٌ لمعرفةِ الإنسان بالله.

أما "الفرقان" فمِن "الفَرْق"، فالإنسان مخلوقٌ لا خالقٌ، وبهذا الاعتبار عليه أن يقوم بالعبودية لله خالقِه، إنه بمعرفته لخالقه يترقَّى إلى أفق الكمال، ويصلُ إلى أفقٍ يُدْرِكُ فيه أسرار الألوهيّة، ثم يرجع ويقول: "إنني لستُ بإلهٍ، بل أنا عبد!".

فـ"الفرقُ" ترجمان لحال العبد هذه، وتعبيرٌ عن رؤية الإنسان لـ"الخلق" وفنائِهِ بينهم، واحتجابِ الحقِّ عنه، وهذا أدنى مراتب "الفرق"، وبالمقابل هناك مقامٌ عالٍ لـ"أرباب المستوى" هو مقامُ مشاهدةِ الله في وجه كلِّ مخلوق، يعبَّر عن هذا بـ"مشاهدة الوحدة في الكثرة"، حيث تتحقَّقُ مشاهدةُ صفات الله الكمالية والجمالية وهي تتجلَّى في كلِّ شيءٍ وعلى مراتبَ شتّى، فالحُلوليُّ يقول ههنا: "كلُّ شيء هو الله"، وأما نحن تلاميذَ القرآن فنقول: "كلُّ شيء منه تعالى"، وبذلك نكون قد عبَّرنا عن أكبر مراتب "الفَرْقِ".

وينبغي للإنسان أن يتشبَّثَ بـ"القرآن" و"الفرقان" حتى يُحْرِزَ مقامَهُ عن طريق العبودية، وإلا فالعملُ والجهد الأحاديُّ الجانبِ لن يرقى بالإنسان إلى مثل هذا المقام السَّامي.

وهناك مقامٌ آخر يسمى "جَمْع الجَمْع"، مَن يصِلُ إليه يضمحلُّ عن عينه كلُّ ما سوى الله، بل إنّه يرى كلَّ الأشياء "عدمًا" من حيث ذواتها، فمن وجد في نفسه مشاعرَ كهذه لا يرى نفسَهُ ولا يشعرُ بها ولا بغيرها، ويبتعد عن "الفرق" تمامًا، فينسى كلَّ شيءٍ حيث إن كلَّ شيءٍ ظلٌّ لِظلِّ ضياء وجود الحقّ تبارك وتعالى، فيترك الانشغالَ بالظِّلِّ ويتوجه بكلّ كيانِهِ إلى الأصْل.

نعم، إن الكون عبارة عن تجليات الأسماء الإلهية، ومهما فسر البعضُ هذا الأمر بتفسيرات خاطئة، فإني أعتقدُ أن عرض الموضوع بهذا الشكل سيكون تعريفًا ملائمًا لروح القرآن.

القرآن الكريم: نغمةٌ أبديّة خالدة

لم يُجِزْ بعضُ الفقهاء التغنّي بالقرآن، بمعنى تلاوتِه في أداءٍ ومقاماتٍ موسيقيّةٍ، وممّن ذهبَ إلى ذلك التابعيُّ الجليلُ الإمامُ سعيدُ بنُ المسيّب، والمجاهدُ الكبيرُ الذي استشهدَ على يدِ الحجَّاج سعيدُ بن جبير، وكذلك من أئمّة ذلك العصر الذهبي الإمامُ النخعي، والمفسّرُ الكبير ابنُ سيرين، ومن أئمة المذاهب الإمامان الجليلان: مالك وأحمد بن حنبل[٩].

ولكن قد يكون من الأنسب لروح هذا الدين -الذي يأخذ بعين الاعتبار تلبيةَ كلّ نوعٍ من حاجات الإنسان من كلِّ المستويات- أن يتمّ تناوُلُ الموضوع وتقويمُه من زاويةِ تلبيةِ القرآن لحاجةِ الإنسان إلى استماعِ الترانيم العذبة والشدوِ النديّ، وأن يُدْرَسَ الحكمُ بناء على هذا الأساس.

فقد صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ سمع أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن ويتغنّى به فقال: "**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**"[١٠].

فتلاوة القرآن الكريم بأداءٍ حسنٍ، وصوتٍ جميلٍ، ونيةٍ خالصةٍ؛ ستكونُ باعثةً لمحبَّةِ الآخَرين للقرآن الكريم، ولذا نَدَبَ الرسولُ ﷺ إليها.

وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي والإمام أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**"[١١].

(٩) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ١٠/١؛ بدر الدين العيني: **عمدة القاري**، ٤٠/٢٠.

(١٠) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ٣١؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٣٦ (واللفظ لمسلم).

(١١) **سنن أبي داود**، الوتر، ٢٠؛ **سنن النسائي**، الافتتاح، ٨٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٤٥١/٣٠.

وقال ﷺ في حديث آخر أخرجه الشيخان: "**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**"(١٢).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: "**اِقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**"، قلت: أَقْرَأُهُ عليك وعليكَ أُنْزِل؟ قال ﷺ: "**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**"، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتَّى إذا بلغتُ ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (سورة النِّساء: ٤/٢٥) قال ﷺ: "**أَمسِكْ**" فإذا عينَاه تذرفان(١٣).

فكأنَّ ثقلَ الآيات التي تلاها ابن مسعود أنهكَ الرسولَ ﷺ، ولو أنه واصَلَ قراءته لذابت الذاتُ الشريفةُ صلوات ربي وسلامه عليها.

وفي حديث آخر يقول ﷺ: "**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ بِالْحَزَنِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِالْحَزَنِ**"(١٤).

أجل، لقد نزلَ القرآنُ بالحَزَنِ، فينبغي تلاوته بقلبٍ حزينٍ منكَسِرٍ، والإنسان العاجز الفقير الذي يتقلَّب بإمكاناته المحدودة وقدرتِهِ الضئيلة في صحراء الوحشةِ هذه، إذا تمسَّكَ بالقرآنِ ذلك الحبلِ المتين فسيرتقي إلى سماء "الإنسانيّة"، وسيسمو إلى آفاق "الإنسان الكامل"، وسينجو بنفسه من هذه الدُّوامة، ويتخلَّصُ من الجوّ الخانق لِتيهِ الدنيا، ومن وحشة العُزلة والوحدة، فالقرآن يجعلُ الإنسانَ يعيش هذا الجوَّ ويشعر بهذه المشاعر، فلا بدَّ لقارئ القرآن أن يقرأه في مثل هذا المناخ، وذلك منوطٌ بمدى تعمُّقِهِ في معانيه الجليلة، فالإنسان ما لم يسبرْ أغوارَ معاني القرآن، وخصوصًا إن لم يبحث فيه عن المقاصِدِ الإلهيّة؛ فإنه لا يستطيعُ أن يُبْحِرَ في أسراره، ولا أنْ يَشْعُرَ في قلبِهِ بتأثيرِهِ وآثارِهِ.

---

(١٢) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ١٩؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٣٣ (واللفظ لمسلم).

(١٣) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣٣، ٣٥؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨.

(١٤) معجم أبي يعلى، ١/١١٣؛ الطبراني: المعجم الأوسط، ٣/١٩٣.

جَمعُ القرآن وحفظُه

إن الصحابة الكرام والتابعين العظام كانوا يقطعون المفاوز والقفار في سبيل تَجْلِيَةِ حقيقةٍ واحدةٍ من حقائق القرآن؛ وفي هذا الخصوص يَروي الإمام الشعبي حادثةً من سِيرةِ مسروق بن الأَجْدَع؛ يقول:

"ما رأيتُ أَحَدًا أَطْلَبَ للعلم في أُفُقٍ من الْآفَاق من مَسْروقٍ، خرج مسروق إلى البصرة إلى رجلٍ يسأله عن آيةٍ، فلم يجد عنده فيها علمًا فأخبره عن رجل من أهل الشام فقدم علينا ههنا ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها"(١٥).

فهيا نفكر قليلًا: إنَّ عملاقًا مِثلَ مسروق يَجُوبُ المَهامِهَ والبواديَ، في ظروف تَشقُّ فيها الأسفارُ، ويَقطع المسافرُ بحارًا من الرِّمال، ولا توجد فيها مِن وسائل النقلِ السريعةِ إلا الخيلَ والآبالَ... ولكنه يخاطر ويتحمّلُ كلَّ ذلك حتى يتعلمَ تفسير آيةٍ من كتاب الله غيرَ مبالٍ بما قد يتعرَّضُ له من المهالك والأهوالِ، ومع ذلك حينما لا يجدُ ما يطلبه لا يستنكف من أن يستأنف الرحلة ثانية بكلِّ عزيمةٍ وراحةِ بال.

(١٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ٢/٩٥.

وها هو المفسر الكبير عِكْرِمة تلميذُ ابن عباس ﷺ ومولاه، يقول:

"طلبتُ اسمَ الرجل المعنيّ بقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ أربع عشرة سنة حتى وجدتُه"(١٦).

ولا شك أن السبب في بذلِ سيدنا عكرمة كلَّ هذا الجهد في البحث عن اسم هذا الشخص طوالَ هذه المدة هو أن العثور عليه والتعرّفَ على طبيعته وموقعِه الاجتماعي سيُلقي الضوء على تفسير الآية الكريمة.

وعن ابن عباسٍ ﷺ قال: مكثتُ سنةً أريد أن أسأل عمرَ بن الخطاب عن آيةٍ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خرج حاجًّا فخرجتُ معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقفتُ له حتى فرغ ثم سِرتُ معه، فقلتُ:

"يا أمير المؤمنين مَن اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه (أي اللتين تعنيهما الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (سورة التَّحْرِيم: ٦٦/٤)؟".

فقال: "تلك حفصة وعائشة"، فقلت: "والله إن كنتُ لَأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك".

قال: "فلا تفعلْ، ما ظننتَ أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علمٌ خبَّرتُك به"(١٧).

(١٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١/٢٦؛ أبو حيان: البحر المحيط، ٤/٤٤.

(١٧) صحيح البخاري، تفسير القرآن، تفسير سورة التحريم، ٢؛ صحيح مسلم، الطلاق، ٣١.

وهنـاك آلاف من الأمثلة يمكن سـردها على هـذا المنوال؛ فالصحابة والتابعـون كانـوا يكِـدُّون في سـبيل الكشـف عن حقيقـة قرآنيّـة واحدة، ويَقْضُون في ذلك أيامًا بل أسابيع وشهورًا وسنين... لا يعرفون كللًا ولا مللًا.

إن القرآن الكريم نزل منجّمًا على ثلاثة وعشـرين عامًا، وطوالَ نزولِهِ كان يُكتب إمَّا على العُسب وقِطع الأحجار أو العظام، أو جريد النخل، أو الرقاعِ حسب الإمكانات الضئيلة لتلك الحقبة، وكذلك كان في تلك الفترة عـدد غيرُ قليل من الذين يسـتظهرون القرآن كامـلًا، لأنهم كانوا يحفظون كلَّ آيـة مـن القرآن فورَ نزولِها؛ فقد كان ابن مسـعود وزيد بن ثابت وأُبَيّ ابـن كعب وسـيدنا عثمان ﷺ ومئات غيرهم قد حفظـوا القرآن كاملًا عن ظهـرِ قلـب، وكان للنبـيّ ﷺ كُتَّاب يكتبـون الوحيَ، فـكان إذا أنزلت عليه الآيـة أو الآيـات دعـا بعـض كُتَّابه، فأملى عليـه ما نزل، فكتـب بين يديه، وكان يأمرهـم بوضـع الآيات في مواضعها المخصوصة من سُـوَرِها، فهم بِدَورِهِـم كانـوا يضعونَهـا موضعَها ويحفظـون القرآنَ على هـذا الترتيب، فكانَ ترتيبُ السور أيضًا من الأمور التوقيفيّة التي تمّت بالوحي.

ولما استُشهد في واقعة "اليمامة" عددٌ كبيرٌ من القرَّاء؛ قَلِقَ سيدنا عمر ﷺ قلقًا شديدًا فقال لسيدنا أبي بكر ﷺ:

"إنّ القَتل قد استحرَّ -أي اشتدَّ وكَثُرَ- يومَ اليَمامة بقُرَّاء القرآن، وإني أخشـى أن يسـتحرَّ القتلُ بالقرّاء بالمَواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني أرى أن تأمرَ بجمـعِ القرآن".

أمـا أبـو بكـر ﷺ فقـد كانـت فرائصه ترتعـد تجاه هـذا الأمـر البالـغ الحساسيّة، فهو الذي سبقَ له أن قال: "أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني،

إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم"[١٨]. نعم، لقد ارتبكَ الصِّدِّيق أمام هذا الاقتراح، وزأرَ مثل الأسد الهصورِ قائلًا: "كيف تفعلُ شيئًا لم يفعله رسولُ الله ﷺ؟".

ولكن سيدنا عمر ﷺ شرحَ له بالتفصيل مدى حساسيّة هذا الأمر وأهمّيّته مما دفعَ بسيدنا أبي بكر ﷺ إلى أن يقول: "فلم يزل عمرُ يراجعني حتى شرح اللهُ صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ"، أي إن عمرَ ﷺ مصيبٌ في هذا الأمر؛ فلا بدَّ مِن جمعِ ما تفرَّق من صحف القرآن بين دفّتي مصحف وعلى هيئة كتاب.

ولكن من ذا الذي كان سينهض بهذه المهمّة!؟

تذاكرا وفكَّرا في الأمرِ مليًا، إلى أن اجتمع رأيهما على زيد بن ثابت، حيث كان ﷺ من الذين يَثِقُ رسول الله ﷺ بحفظهم وضبطِهم للقرآن، يقول زيدٌ ﷺ:

قال لي أبو بكر: إن عمرَ أتاني فقال: إن القتلَ قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تَجمع القرآنَ، فقلتُ لِعُمَر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله صدري، ورأيتُ الذي رأى عمر، إنك (يا زيد) رجلٌ شابٌّ عاقل ولا نتّهمك، كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجمعْه.

يقول زيد ﷺ: فوالله لو كلَّفَني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كانَ أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلتُ: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله

(١٨) موطأ الإمام مالك، ١٦٦/٢؛ ابن أبي شيبة : المصنف، ١٣٦/٦.

النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزلْ أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرحَ الله له صدرَ أبي بكر وعمر، ورأيتُ في الذي رأيا فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَنْسَخُهُ مِنَ الصُّحُفِ وَالْعُسُبِ وَاللِّخَافِ (الحجارة الرِّقاق) وَصُدُورِ الرِّجَالِ[١٩].

وكذا فقد جُمِعَ كلُّ ما كان متفرِّقًا من القرآن، وتمَّ هذا تحت إشراف سيدنا أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة ﷺ، فحصلَ الإجماع على القرآن الذي جُمِعَ على شكلِ كتاب.

وفي عهد سيدنا عثمان ﷺ ظهر نزاعٌ سبَبُهُ اختلافُ وجوه القراءات، فقد روي عن رسول الله ﷺ "**إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**"[٢٠]، فمهما كان المقصود بـ"سبعة أحرف" -على اختلاف ما قيل فيها- فقراءة القرآن بأشكال مختلفة أدَّى إلى حدوثِ خلافٍ بين المسلِمين.

يقول أنسُ بن مالك ﷺ:

إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان وكان يغازي أهلَ الشأم في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمان: "يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأُمَّةَ قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى"، فأَرسلَ عثمانُ إلى حفصة ﷺ زوج النبي ﷺ: أنْ أَرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسخها في المصاحف ثم نردَّها إليك، فأَرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمان، فأَمر عثمانُ زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمانُ للرهط القرشيّين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش،

(١٩) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣.

(٢٠) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٥؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٧٠.

فإنما نزل بلسانهم"، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يُحرق[٢١].

فما زال القرآن محفوظًا إلى يومنا هذا بالرسمِ العثماني الذي أُقِرَّ في عهدِ عثمان ﷺ طبقًا للأصل الذي أُخِذَ منه... والواقع أن الله تعالى هو الذي تولَّى حفظه كما بيَّن ذلك في قوله الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ٩/١٥)، وسيحفظه إلى يوم القيامة، وإذا نحن رعيناه وتولَّيناه فسنكون نحن وسائل حفظه، وبذلك ستتنوَّرُ بيوتُنا وبلادُنا بنورِهِ.

نعم، إننا إذا اتخذناه تاجًا ورفعناه فوقَ هاماتِنا، فسنرتقي إلى مستوى نكون فيه التيجانَ على رؤوس الإنسانية.

(٢١) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣.

القرآن "كلام اللّه"

إن "الكلامَ" صفةٌ من صفات الحق تعالى، وهو ﷻ "المتكلّم الأزلي".

واللهُ تعالى خلقَ الكائنات بما فيها من بني الإنسان، ثم بيَّن حقيقةَ الكون وشرحَ لنا أنفسَنا وذواتنا، وبيّن ماهيّةَ الإنسان تلك التحفة الفنية، ووضّح وحلّ معنى ذلك اللغزِ المحفوفِ بكوامن الأسرار، وهو تعالى يتحدَّثُ عن ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ، لكن لا يُمكننا إدراك كُنْهِ كلامِ الله، حيث إننا عندما نقول "كلام الله" نعني به واحدًا من معنَيَين اثنين:

الكلامُ النفسيُّ، وهو صفة لله قديمة أزليّة مثل سائر صفاته تعالى، وهو معنًى قائم في نفسه تعالى لا نستطيع إدراك كنهه ولا نصلُ إلى فهمِهِ.

الكلام اللفظيّ، وهو النَّظْم المصوغ من الحروف والأصوات، والمُعبَّرُ به عن الكلام النفسي.

نعم، إن صفةَ الله "الكلام" صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى، فلم يكن هناك شيءٌ بعدُ، لم يكن الكونُ والعوالم والأشياء والإنسان موجودًا، ولكن الله تعالى كان "متكلِّما" متَّصفًا بصفةِ الكلام.

إن القرآن أزليٌّ، وكان القرآنُ موجودًا حيث لم يكن سوى الله شيءٌ، ولكن بمعنى "الكلام النفسيّ".

وهذه النقطة دقيقةٌ جدًّا ومن مزالقِ الأقدام، نريد أن نلفت النظر إليها بإيجاز:

حينما يُتلى القرآن أو يُسمع أو يُكتب؛ فإنَّ الكلامَ النفسيَّ يُفْهَمُ من خلالِ الألفاظِ؛ فإذا قلنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مثلًا، فكلمة "إنَّ" تحتوي على الهمزة والنون، والكلمات الأخرى أيضًا تألَّفَتْ من حروف مختلفة، وهي تراكيب لفظيّة، وحينما نكتب هذه الحروف أو ننطق بها؛ يتجلّى لنا كلامُ الله النفسيُّ ويُشعرنا بذاتِهِ بكلّ ثِقَلِهِ.

ولو فرضنا أن التراكيب اللفظيّة والحروفيّة قد يسأمُ الإنسان من إعادَتِها وتكرارها، ولكن الذي ينفذ إلى معانيها القرآنية القدسيّة لن يسأم ولن يعتريه المللُ قطعًا، فالإنسانُ يشعر بهذا المعنى النفسي مجهولِ الكيفيةِ بالنسبة إلينا، لكن ليس له أن يحيط به علمًا، وأما اللذة الروحانية التي يلمسها القارئ فليس إلى شرحها ووصفها من سبيل؛ فكما أننا لا ندركُ ماهيّة الوحي ومَبْلَغُنا من العلم به هو الوقوفُ منه موقف الحيرة والاندهاش؛ فكذلك القرآنُ إذا تلوتَه واستمَعْتَ إليه على الوجه اللائق فإن هناك وراءَ ظاهِرِ الألفاظ والمعاني معانيَ مستَتِرة يُدْرِكها الإنسان ويشعر بها بحيث لا نستطيع في هذا الباب إلا أن نقول: إن نصيبَنا من "المعرفة" في هذا المقام ليس إلا الاندهاش والانبهار.

وإنا إذا فهمنا الأمر على هذا المنوال، أيقنَّا أنّ ما تقوله المعتزلة من "أن المتكلم يعني مُوجِد الكلام"، وما يجازف به الحشوية من "أن كل ما بين دُفَّتَي المصحف قديمٌ أزليٌّ من الخطِّ إلى الورق الذي يُكتب عليه"؛ ليسَ إلا لغوًا من الكلام.

فالأصوات والحروف والكلمات والجمل مخلوقةٌ باعتبارها أدواتٍ خُلِقَتْ كي نستعملَها نحن البشر. أجل، فالقرآن يحتوي حروفًا وأصواتًا،

مهمّتُها أن تُعبّرَ لنا عن الكلام النفسيّ الذي يفوقُ إدراكَنا بما لا يُقاس، لكنّنا نشعرُ به ونتلقّاه من ثنايا هذه الحروف والكلمات، وبهذا الاعتبار فإن "كلام الله" ذلك الكلامُ الأزلي ذو الأبعاد الخاصّة -أو قلْ: ذو شأنٍ يفوقُ كلَّ الأبعاد والكيفيّات-، ويعبّر عنه كلٌّ مِما بين دفّتي المصحف وما يُتلى على أفواه الناس وما تحتويه صدورُ الحفّاظ.

نظرة خاطفة إلى إعجاز القرآن الكريم

إن القـرآن الكريـم مُعجِـزة، والمعجزةُ: أمرٌ خارقٌ للعـادة، يُجريه الله تعالى على يدِ الأنبياء لإثبات دعوى النبوة؛ حيث يَخرُج إلى الناس شخصٌ فيقولُ لهم: "إني رسول الله"، فيتوقَّـعُ الناسُ منه أمورًا خارقةً للعادة لتكون دليـلًا علـى نبوَّتِهِ، فيُجـري اللهُ على يديه أمورًا يَعجز الإنسـانُ العاديُّ عن الإتيان بمثلها، فهذا ما نسميه "معجزة".

ويُشترَط لتسمية مثل هذه الأمور "معجزة" أن تكون خارقةً للعادةِ وأن يكون صدورُها متزامنًا مـع دعوى النبوة وموافقًا لها.

لقد ظلَّ القرآن يتحدّى البشـرَ منذ أربعة عشـر قرنًا فيقول: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ (سـورة البقرة: ٢/٢٣)، ولكن البشرية لم تستطـع بتاتًا أن تأتي بمثلِهِ، ولن تستطيـع.

نعم، إن القرآن الذي أنزله الله، واستمرأَتْهُ الأفئدة والقلوب، وسُطر في الصحف، واستظهره الحفّاظ؛ لهو كلام الله المعجزُ!

والآن لنَعْرِض الجوانبَ الإعجازية للقرآن الكريم بإيجاز:

١- نَظْمُ القرآن...

فنظمُه بديعٌ مختلفٌ عن كلِّ أشكال النَّظْم المعروفة، حيث إن أهلَ الجاهلية لما سمعوه وجدوه غريبًا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسندوا إليه أي نقصٍ ولم يعثروا فيه على مثلبة... فنظمُه معجز من هذه الناحية، ومن جانب آخر نراه قد أثرى اللغة العربية وأثَّرَ فيها، واستخدَم كلَّ كلمةٍ في مكانِها المناسب، وضَبَطَ القواعدَ النحويّة والبلاغية، وقعَّد قواعِدَهَا وكأنه نزلَ بِأُسُسِ قواعدِ علمِ الصرفِ والنحوِ والبلاغةِ... ومع ذلك إنه واجه الناسَ بأسلوبٍ تعبيريٍّ مختلفٍ وفريدٍ.

٢- يتمتَّع القرآن بجزالةٍ خارقة لا ندَّ لها... فالقضايا التي تناولها القرآن كبيرةٌ جامعةٌ منطويةٌ على معانٍ شتى، فليس بمقدور البشر أن يحيطَ بها عِلمًا، فالذي تناولَ الحقائقَ التاريخيَّةَ كلَّها بأحكَمِ شكلٍ منذ بداية خلقِ الكونِ إلى يومنا هذا هو القرآن المعجِزُ البيانِ.

٣- إن القرآن الكريم نزلَ في ثلاثةٍ وعشرين عامًا، وفي مناسباتٍ مختلفةٍ، وخاطبَ فئاتٍ متنوّعةً وشرائحَ متعدّدةً، لكنه بانسجامه الخارقِ وتَناسُبِه القويّ يبدو وكأنه نزلَ مرَّةً واحدةً ولسببٍ واحدٍ ولمخاطَبٍ واحدٍ، وقولُه تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (سورة النساء: ٨٢/٤) يشيرُ إلى هذه الحقيقة، أي أفلا يتفكّرون في أوَّل القرآن وآخرِه، ويُمعِنُون فيه النظرَ المرَّةَ تلوَ الأُخرى، حتى يتبيّنَ لهم أن القرآنَ لو كان كتابَ غيرِ الله، لكان فيه من الأحكام ما يُناقِضُ بعضُه بعضًا... والحال أن فيه من التناسب والانسجام، بحيث إن الذي يملك أقصى مستوى من الذكاء والمواهب لن يقدرَ على أن يكتبَ سطرين على هذا المستوى من التناسب، فإن القرآن بدءًا من "الْحَمْدُ للهِ" وانتهاءً بـ"مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ" وحدةٌ متكاملةٌ كأنها تتحدّث عن قضيّةٍ واحدةٍ.

ومع أن هناك من ادَّعى "أن الله صَرَف الهِممَ عن معارضة القرآن ولذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلِهِ"، إلا أنَّ القلبَ لا ينصاعُ لتقبُّل هذه المقولةِ، فالقرآن بكلماتِهِ وآياتِهِ وجُمَلِهِ يتحدى في الميدان، فليتفضَّل أهلُ هذا العصر وليأتوا بنظيرِهِ، أو -على الأقل- بعشرِ سورٍ تنافسُ سورَه، أو حتى بسورةٍ من مثله... كلا! إنهم لن يَقدِروا على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا.

القرآن من حيث مضامينه

أ. القرآن تفسيرٌ لكتاب الكون

لا بدَّ لكتابِ الكونِ هذا -الذي رُصِفت سطورُه وصفحاتُهُ بِدِقَّةٍ وانتظام- من قارئٍ يقرؤُهُ ويُمعِنُ النظرَ فيه، وهذا القارئ هو الإنسان، والذي يفسِّرُ للإنسانِ هذا الكتاب ويُساعِده على فهمِهِ هو القرآن، فالله ﷻ مِن فضله أنعمَ بالقرآن الكريم -الذي هو ترجمةُ هذا الكتاب وتفسيرُه- على الإنسان الذي لا يستطيع أن يُدرِكَ ويستوعبَ تلك المعاني الكبيرة العميقة التي يحتويها كتابُ الكون، فلا يمكننا أن نلحظ هذه المعاني الكبيرة لأوَّلِ وهلةٍ على صفحات الكون العريضة وطبقاتها الشاسعة، ويمكن رؤيتُها في القرآن الكريم على شكل فهرس، وهذا في الوقت نفسه لون آخر من رحمة الله بالإنسان؛ لأن الذي خلق الكون هو الله ﷻ، والذي جعل كتاب الكون يتحدَّث عن نفسه هو الله؛ فكما أن أحكامَ غير الله في حقِّ الكون تحتمِلُ الخطأَ؛ فكذلك الحُكم حول الإنسان.

إن الكون ملك الله... والقرآن كلام الله... والإنسان عبد الله... والذي يؤسّس العلاقة بين هذه العناصرِ الثلاثه هو الله... وفي هذا السياق يقول الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٥٣).

يعني -والله أعلم- أن الناسَ مهما حاولوا أن يتخصَّصوا في أيّ علمٍ من العلوم، فإننا سنوضّح لهم من خلال هذه العلوم بكلِّ وضوحٍ وجلاءٍ آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم، وسيُخبِرهم العِلْمُ بأنَّ ماهيَّةَ الإنسانِ ليست عبثًا أو دون نظام، وأن الفرضيات والنظريات الأخرى المطروحة في هذا المجال خاليةٌ عن أيّ سندٍ أو دليل، وأن هناك وراءَ لُغْزِ الإنسانِ حقائقَ، وأنهم سيستشعرون بهذه الحقائق في أنفسِهم، والذين يُدَقِّقُون في الكون من شتى جوانبِهِ سيستشعرون هذه الحقائق ناصعةً جليَّةً، وسيُطْلِعون الآخرين على ما عَثَرُوا عليه من حقائق.

إن القوانين المختلِفَةَ الموجودةَ في الكون تُسَمَّى "الآيات التكوينيّة"، ومهما كانت أسماءُ هذه القوانين فلن تؤثّر على ماهية الأمر... وكلُّ قانونٍ من هذه القوانين آيةٌ من آيات الله تعالى، فالقرآنُ الذي هو نابعٌ من صفة الله: "الكلام"؛ إنما هو ترجمانٌ أبديٌّ لهذه "الآيات التكوينية" النابعة من صفة الله تعالى: "التكوين".

نعم، إن القرآن يقف على الكون متحدِّثًا عنه فيقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠/٣)... فخلْقُ السماوات والأرض، وتَداوُلُ الليل والنهار في انتظام واطِّراد، والمناسبةُ بين السماء والأرض بتبخُّر مياهِ البحار وإنزال السماء قطراتِ الغيث على الأرض المحتاجةِ إلى الماء، وشقُّ النبات للتراب وخروجُه إلى وجه الأرض بارزًا، ونموُّ كلِّ شيءٍ حسب قانون النشوء والنماء... كلُّ ذلك من آيات الله تعالى، فالقرآن يُفَسِّرُ لنا شتّى آيات الله وقوانينَه الساريةَ في الكون ويبيّنُها لنا.

والآن لنتطرَّق -ولو بإيجازٍ- لكيفيةِ شرحِ القرآن لهذه الآيات:

١- معجزةُ اللبَن:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٦/٦٦).

إن الأغذية التي يتناولها الحيوان تُلبي حاجةَ جسمِهِ من البروتين والفيتامين والكالسيوم والحديد وغير ذلك... وأيُّ نقصٍ في واحدةٍ من هذه يؤدّي إلى بعض الأعراض الجانبيّة في الجِسْمِ، وإذا حان الوقت المحدَّدُ فإنّ الله يستخرِجُ من بين لحمِ هذا الحيوان ودمِهِ وعروقِه وشرايينه وأعصابهِ لبنًا مستساغًا لذيذَ المذاق.

والمواد التي يأكلها الحيوان بعضُها يتحلَّلُ في فمِهِ وبعضُها في معدَتِهِ، ومعظمُها يُهضَمُ عَبر الأمعاء الدقيقة، وبعد أن تتمّ عملية امتصاصها من قِبَل الشُّعيرات الموجودة في الأمعاء، تمرّ مع الدم من خلال الغدد الحليبية، فتخضع لعمليّةِ تصفيةٍ ثانيةٍ، وبعضُ المواد المغذية تُساق إلى المراكز التي تحتاج إليها، وتوزَّع في الخلايا حسب الحاجة، وبعضها يصير لبنًا في الغدد الحليبية، وهذا اللبن يذهب بعد ذلك ويتجمَّعُ في الثدي، ونحن نحلب هذا اللبن الذي هو بالنسبة لنا مصدر البروتين ونشربه فيمنحنا الطاقة.

وهذا الأمر الذي عرضناه باختصار هو ظاهرةٌ يعترف بها العلمُ والمشاهدةُ والاستقراء، أي إنه أمر يقول به البحث العلمي...

والآن، تعالوا بنا نُلْقِ نظرةً على الآية المتعلقة بالموضوع، في ضوء هذه المشاهدات العلمية:

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ (أي في حياتها وكيفية تناوُلِها الغذاءَ) لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ (أي من بعضه لا كله، فـ"مِن" في قوله "مِمَّا" للتبعيض)، ثم تشرح لنا الآيةُ كيف يتكوّن ما في بطونِ الأنعام فتقول: مِنْ

بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ (أي إن هنالك شيئين: الفرث والدم، فالفرزُ الأول يكون من بينهما، والفرز الثاني يكون في الدم خاصّة؛ فالمواد المغذّية تتحوَّل إلى دمٍ تمتصُّه الأمعاء، ثمَّ تبدأ الغدد الحليبيّة بممارسةِ مهامّها وتصفية الدم واستخراجِ الحليب منه، وهذه هي عمليّة التصفية الثانية)، "لَبَنًا خَالِصًا" (أي يكون لبنًا نظيفًا بكلّ معنى الكلمة، صافيًا خالصًا من الشوائب).

فالمادة التي تخرج من الفرث يَعافُها الإنسان، ولكي يزيل القرآنُ هذا قال أولًا: "خَالِصًا"... ومن جانب آخر قد يُخَيِّلُ للمرءِ أنه غير مستساغٍ لأنه يخرجُ من بين الفرثِ والدمِ وأن الشاربَ سيَغَصُّ به، قال: "سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ"، فاللبنُ يخرجُ من بين الفرثِ والدمِ لكنَّه لا يحمل أيَّةَ صفةٍ كريهةٍ لا من الفرث ولا من الدم.

فالرسول ﷺ كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتبُ، وقد أجمعَ على ذلك كلّ مَن عاصره، من مؤمنٍ وكافرٍ ومنافقٍ، كانوا متَّفقين على أنه لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابة، ورغم أُمِّيَّتِهِ نسمعُ آياتٍ كهذه صدرت من فمِهِ المبارك، وبعد أربعة عشر قرنًا نرى أن هذه الآيات تشير إلى حقائق علمية لا يمكن إدراكها إلا عن طريق الأشعة أو البحث العلميّ الدقيق!

فهذه الحقيقة تدل بكل نَصَاعةٍ ووضوحٍ على أن القرآن كلامُ علّامِ الغيوبِ ﷻ، وبنظرةٍ خاطفةٍ يمكن للإنسانِ التحقُّقُ من هذا الأمر، شريطةَ أن يتحرَّرَ من الأحكام المسبقة.

٢- تقلّ نسبةُ الأكسجين كلما صعد الإنسان إلى الأعلى

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٦/١٢٥).

أي مَـن أراد الله هدايته مِن الذين اسـتعملوا إرادتهـم في الخير؛ بَعث في قلبه الطمأنينةَ وجعله يستسـيغ الإسـلام، ومن أراد ضلالتَه مِن الذين اسـتعملوا إرادتهـم في الشـر؛ ضيَّق صدرَه كالـذي يكابِدُ مشـاقَّ الصعود إلى السـماء، فالأوَّلُ سـيطمئن قلبه ويهدأُ فؤادُه بالإسـلام، والثاني سيظلُّ متخبِّطًا في حالاتٍ من القلق والاضطراب.

لكـنَّ القرآن صورَ حالةَ الأخيرِ بطريقةٍ فريدةٍ وتشـبيهٍ بديـعٍ لم يُسـبَق إليه، فقال: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تتقطَّعُ أنفاسه ويبَحُّ صوتُه ويضيقُ صدرُه كأنه يعاني من قلّة الهواء وندرةِ الأوكسجين.

فنلاحظ في هذه الآية تشـبيهًا، ومن المسـلَّمِ به أنَّ وجهَ الشَّـبَهِ لا بدَّ أن يكون أقوى وأوضح في المشـبَّه به منه في المشـبَّه، فنحن إذا أردنا أن نتحـدَّثَ عـن صفاء الجوِّ وقلنا: "الجوّ هنـا مثل الجوّ في المريخ" لم نأتِ بمثالٍ يفي بالغرض، لكن يفيد المخاطبَ ما يحكيه المتكلِّمُ عما تحقَّق منه وعاينه بحيث صار واضحًا عنده.

فالقـرآن فـي هذه الآية يشـبِّه ضِيقَ الصدر بشـيءٍ مجهولٍ لأهلِ ذلك الزمان، لكنَّ ذاتَ الشـيءِ توصلَت إليه البشـرية عن طريق البحثِ العلمي إلى أنّه قانون علميٌّ صرف.

وما اختاره القرآنُ من الكلمات يعين على المعنى، منها:

طبيعـة كلمة "يَصَّعَّد"، حيـث إن هذه الصيغة تدلُّ على التكلُّف، فتفيد أن هناك معاناة وإرهاقًا.

المدّ في كلمة "السـماء" يُشـعر عند تلفُّظها بما يَشعُر به من يصعد إلى السماء.

والجملة بصياغتها وطبيعتها تعطي هذا الشعور، وتخلقُ هذا المناخ.

ولم يكن أحد يعرف آنذاك أنَّ صدر الإنسـان يضيقُ وتتقطَّع أنفاسُـه

كلّما صعد وارتفعَ إلى الأعالي، وهذه الحقيقة إنما تَبيَّنت بعد أن استفاد الناس من تقنيّات القرن العشرين وقاموا برحلاتٍ جوّيّة بواسطةِ المناطيد والطائرات.

والقرآن الكريم حينما تحدَّث قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان عن ضِيق صدر الإنسان غير المؤمن استَعمل تشبيهًا لطيفًا، وأشار بأسلوب يليقُ بمقامِهِ السامي إلى أن نسبة الأكسجين تقلُّ تدريجيًّا كلّما صعد الإنسان إلى الأعلى.

وهكذا يبين القرآن ما يعانيه إنسانُ عصرنا هذا من شتى أنواع الاكتئابات والإرهاقات الروحيّة والنفسيّة، فيخاطبنا نحن بالذات، لأن إنسان هذا العصر يمكنه أن يَعرف هذه الحقيقة العلميّة.

٣- خَلْقُ كلّ شيء زوجين

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٩).

إن لفظة "كُلّ" إذا أُضيفت إلى معرفةٍ أفادت عموم الأجزاء، وإذا أضيفت إلى نكرة أفادت عموم الأفراد، بمعنى أن كلَّ فردٍ من أفراد المضاف إليه يدخل تحت الحكم، فكلمة "شيء" في هذه الآية نكرةٌ تعمُّ كلَّ الموجودات، وهذه الكلمة تأتي بمعنى "موجود" لذا يصح إطلاقُه على الله تعالى أيضًا باعتبارِهِ موجودًا بل واجب الوجود، ولكن بما أن المتكلم هنا هو الله تعالى فهو خارج عن هذا الحكم، فما عدا الله تعالى من الموجودات خَلقَه اللهُ زوجين.

فكما أن هذا الحكم جارٍ على بني الإنسان فكذلك على سائر الحيوانات، والنباتاتُ كذلك خُلِقَتْ زوجين؛ فيها الذكر وفيها الأنثى،

حتى إن الذرَّات التي هي المادة الأصليّة لكلِّ الأشياء زوجان: موجبٌ وسالبٌ، وتتجلّى الزوجية في الأشياء من جانب آخر وهو وجود القوّة الجاذبة والدافعة في كلِّ شيءٍ، إذ لو انعدمت هذه الخاصية من الأشياء لم يكن بمقدور الموجودات أن تحافِظَ على استمراريّة وجودِها.

وقولُه تعالى في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٣٦) يبين هذه الحقيقة بمزيد من التفصيل.

فمِن الملاحَظ أن هناك أمورًا يشير إليها القرآن كانت خارجَ نطاقِ ما يشاهده المخاطَبون الأوّلون بالوحي في تلك المرحلة، ولم تكن معلومةً في تلك الحقبة، فيقالُ لهم: إن هناك أشياء أخرى لا تعلمونها قد خلقها الله "زوجين"، ولم تكن الذرّة والإلكترون والنترون والبروتون معروفةً في ذلك الوقت، وأما في زماننا فقد ظهرت حقيقةُ أن قِوام كلِّ موجود إنما هو بما يشتمل عليه من الأزواج، وأنها تتعانق وتتآزر حتى يظلَّ النظام قائمًا ودائمًا، ولسنا ندري بماذا سيأتي لنا علم الفيزياء الذرّية في قابل الأيام.

٤- عالَم الذَّرَّة

يقول الله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة سَبَإ: ٣٤/٣).

إن هذه الآية تُبيّن -أوّلًا وبالذات- أنه لا يخفى على اللهِ تعالى شيءٌ، ولا يخرج عن حدود إحاطة علمه وسمعه وبصره شيءٌ. نعم، إن كلَّ شيءٍ -بدءًا من أدقِّ العوالمِ الذَّرية وأصغرِها، وانتهاءً بعوالم أكبر الأجرام السماوية- لهي في يدِ قدرتِهِ بمثابة خرزات السُّبحة يقلبها كيف يشاء، فالآية تحدِّثنا عن هذا، ولكنها في الوقت نفسه تلْفِت أنظارنا إلى بعض الحقائق العلمية.

والذرة هي في لغة عصرنا -كما في لغة السابقين- تعني ما يسمونه *(Athom)*، ولكن الناس في العصور الغابرة من حيث إنهم ما كانوا يعرفون حقيقة الذرة كانوا يفهمونها على أنها أجزاء الغبار التي تلوح أمام النوافذ إذا دخل منها أشعة الشمس، لأنها كانت أصغرَ أجزاء المادّة في نظرهم في تلك الأزمان، والذي يهمّنا هنا هو إطلاق هذه الكلمة على أصغرِ أجزاء المادة.

ولكن في زماننا هذا صارت كلمة الذرة تُطلَق تمامًا على ما يسمونه *(Athom)*، ومما يجلب النظر في هذا المقام أربعة تعبيرات:

الأول: "الذرة".

والثاني: ما هو أصغر من الذرة ومن مكوّناتها، وهو "الإلكترون".

والثالث: ما هو أكبر من الذرة، وهو "الجُزَيْء".

والرابع: تعبير "مثقال ذرة" ويشير -والله أعلم- إلى "الوزن الذَّرِّي".

فلن يخرج شيءٌ عن دائرة إحاطة علم الله تعالى؛ سواء كان ذلك ذرةً أو إلكترونًا أو جُزَيْئًا.

وأما عن "مثقال ذرة" فمِن المعلوم أن موضوع الوزن الذرّي من الأهمّيّة بمكان في علم "الفيزياء الذرية"، والعلماء في الماضي كانوا قد وضعوا على الهيدروجين رقم (١) وعلى اليورانيوم رقم (٢٢٨)، فالوزن الذرّي للهيدروجين هو الأخفّ، في حين أن الوزن الذري لليورانيوم هو الأثقل.

إن العلم الحديث وَضَعَ ضوابطَ وأصولًا لِما أشار إليه القرآن قبل عصور من اكتشاف الوزن الذرّي، وبيَّن الوزنَ الذرّي لكل واحد من المواد (العناصر).

وفي الآيات الثلاث الأولى من سورة الذاريات ما يلقي الضوء على هذا الموضوع بإشارتها؛ قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ (سورة الذاريات: ١/٥١) أي أُقسم باللواتي تذرو الترابَ وتُثير الغبار... والنظريةُ الإلكترونية التي وضعها لورنز تقول: إن المحورَ المتناهيَ الصِّغَرِ للذرة يُشْبِهُ المنظومةَ الشمسيَّةَ، وكأنه منظومةٌ شمسيّة صغيرة.

وقُطرُ ذرّة الهيدروجين التي هي أخفّ الذرات وزنًا، هو عشرة بالمليون للميليمتر، وفي مركزه نواةٌ محمَّلةٌ بتيَّارٍ كهربائيٍّ موجبٍ، وفي حواليه إلكتروناتٌ محمَّلةٌ بتيَّارٍ كهربائيٍّ سالبٍ، وهذه الإلكترونات محيطة بالنواة على شكل سحابةٍ، ويدور إلكترونُ الهيدروجينِ بسرعةِ حوالي ألفي كيلومتر في ثانيةٍ واحدةٍ، بينما يدور إلكترون اليورانيوم بسرعة مائتي كيلومتر... وكان من المفترَضِ أن تنعدم هذه الطاقةُ شيئًا فشيئًا، وأن تنعدم -بالتالي- الحركةُ بسبب ذلك بعد مدَّةٍ وتتوقَّف، ولكن لم يحصل شيءٌ من ذلك.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ (سورة الذاريات: ٢/٥١) أي أُقسِم باللواتي تحملُ أحمالًا ثقيلةً، والتيَّار الموجبُ الذي في النواة يكونُ في البروتون لأنه هو الذي سيتحمَّلُ الثقل، وأما النترون فمن المعلوم أنها لا تيّار فيها.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (سورة الذاريات: ٣/٥١) أي التي تجري بسهولة.

والنترونات على نوعين:

منها ما هو في غايةِ السرعة الفائقة، وتقرُب سرعتُها من سرعة الضوء، وتملكُ طاقة هائلةً بحيث إن منها ما يثقبُ اللائحات الرصاصيّة التي سَمْكُها ثلاثون سنتيمترًا، وتمرّ من خلالها بسهولة.

وقسمٌ آخر من النترونات بطيئة، سرعتها تفوق سرعة الجزيئات قليلًا، فهي تُضبط مِن قِبَل النواة التي تَمُر هي بها في طريقها، فتنشطر النواة،

فتتولَّد من التيار الذي يحصل نتيجة هذا التفاعل نتروناتٌ تتراوح سرعتُها بين (٥-١٠) مليون إلكترون فولت *(electronvolt=e)*، ففي قوله تعالى ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ إشارة إلى هذا -والله أعلم-.

٥- السحاب - الرياح - اللقاح - والمطر

إن الهواء يمتصُّ النداوة والرطوبة بنسبةِ حرارتِهِ، والهواءُ الحارُّ حينما يلتقي بطبقةٍ دافئةٍ فإنه سرعان ما يمرّ عبرها بسهولةٍ ومن دون عراقيل، وكثافةُ الهواء تتناسبُ عكسيًّا مع الحرارة، بمعنى أن الهواء حينما يتعرَّض لعمليّة التسخين يصير أخفّ مما حوله من الهواء العادي، وينبعثُ إلى الأعالي، وكلّما انبعث إلى الأعالي ووَجَدَ بيئة تُمَكِّنه من التوسع توسَّعَ، وهو يحتاج إلى الطاقة حتى يتوسع، ويؤمِّنُ هذه الطاقةَ من حرارته، ويظلُّ يرتفع إلى الأعالي في إطار هذا القانون، فهو يتوسّع مِن جانبٍ، وكلّما توسع استَهلك الطاقةَ، وَفَقَدَ مِن حرارته، وكلما فَقَدَ الطاقةَ صَعِد إلى الأعالي، ووصل إلى نقطة الندى، وكلّما كانت حالةُ الجوّ غير مستقرّة كلّما صعد إلى الأعلى أكثر... -وما أروع ما يراه راكبُ الطائرة حينما ينظر مِن عَلٍ فيُشاهِدُ مَنظرَ السحبِ على هيئة الجبال، وتبدو كأنها ركامات من القطن المندوف!- وإذا توقفت السحبُ في موطنٍ واستقرَّت فيه، وانتهى صعودها وهبوطها، فهذا يعني أن السماء ستُمْطِر وستعصف العواصف، وأحيانًا يصعدُ الجوُّ الدافِئُ إلى أعلى من هذه المرحلة نتيجةَ التضييقِ، فيأخذُ شكلَ سندانٍ أو ربوةٍ، ويكون التضييقُ هناك أشد وأكثر...

والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٢٢).

الرياح تقوم بوظائف كثيرة، فتلقيح النبات كما أنه يتحقّق عن طريق بعض الحشرات وطرائقَ أخرى، فإنه يتحقق بواسطة الرياح أيضًا، إذا

تناولنا أول الآية فقط "وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ" نفهم منه هذا المعنى أيضًا، وأمرُ لقاح النبات عن طريق الرياح كان معروفًا ومشهورًا منذ زمنٍ بعيدٍ، إلا أن أمرًا بقي مستورًا خفيًا لم يكشف العلمُ اللثامَ عن وجهِه إلا في أيامنا العلميّة هذه، وتُشير إليه الجملة التالية: "فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه"، وحملُ اللقاح في هذا السياق على لقاح النبات والشجرِ غيرُ مناسب؛ لأن ذِكر نزول المطر في سياق ذكر النبات ولقاحِه أمرٌ لا يتناسب مع أسلوب القرآن المتناسِبِ الراقي الجذاب، فالفاء في قوله "فَأَنْزَلْنَا" يدلّ على أن نزولَ المطرِ يترتَّب على هذا اللقاح، وهو أمرٌ مختلفٌ تمامًا عن لقاح النبات.

وقولُه تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾ (سورة النُّور: ٤٣/٢٤) يدلُّنا على هذا المعنى بشكلٍ أوضح ومن منظار آخر.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا" أي يسوق قِطَعَ السُّحُب، ومن يتابع مراحلَ تَشَكُّلِ السحب يَفهم ما في تعبير "الإزجاء" من "الدفعِ بلطف".

"ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ" أي بين السحاب، والتأليفُ يكون بالتوفيق بين شيئين مختلفين والجمعِ بينهما.

"ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا"، وأجزاءُ السحب في الجو متقطِّعَةٌ ومنفردة لا تَجاذُبَ فيما بينها لأنها محمَّلة بنفس القطب الكهربائي، وبعد ما يتم اللقاح بينها بواسطة الرياح تتجمعُ فتصير: "رُكَامًا".

"فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ" أي فإذا بك تَرى المطرَ يتقطر من خلال أجزاء السحاب الركام بعدما تمّ الوصول إلى نقطة الندى.

"وَيُنَـزِّلُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَـرَدٍ"، إنَّ وَضْـعَ البرَدِ مختلفٌ؛ فهـو لا ينـزل من حيـث ينزل المطر؛ فإنه يتشـكل في أعالي السـحب في المناطق التي تُشْبِه في شكلها ذُرى الجبال والتي يصل فيها الضغط أقصى حـدوده، حيث إن قطراتِ الأمطار تَبقَى مترددة، ولا تسـتطيـع النزول إلى الأسـفل من شـدة الضغـط، ولِأنها تبقى فـي الطبقة الباردة فإنهـا تتجمَّدُ، وكثيرًا ما يؤدّي تردُّدُها في تلك الطبقة إلى أن تصير حبّاتُها كبيرةً في فترة نزولِها.

والقـرآنُ الكريم في هذه الآية يصرح بأن الطبقة التي ينزل منها المطر تختلف عن الطبقة التي ينزل منها البَرَد.

ونسـتفيد مـن روح الآيتيـن الكريمتين أن القرآن يقول لنا: إنا أرسـلنا الرياح لتؤلِّفَ بين أجزاء السـحبِ المحمَّلة بالطاقة الموجبة وبين السُّحُبِ المحمَّلَةِ بالطاقة السـالبة، ولتلقِّحَ بينها، فلو لم تؤلِّف بين أجزاء السحاب المحمَّلـة بِطاقتيـن مضادتيـن لـم ينزل المطر من السـماء إطلاقًا، وسـواء أكان التأليف بين قطرات المطر الموجبة والسـالبة أم بين أجزاء السـحاب الموجبة والسالبة، فإن كل ذلك يتحقَّقُ بتأليف من الله تعالى.

٦- توسيع السماء

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ﴾ (سـورة الذَّارِيَاتِ: ٤٧/٥١).

معلـومٌ أنَّ الجملة الاسـمية تفيدُ الثبوت والـدوام، وقولُه تعالى: "وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ" جملـةٌ اسـميّة غير منحصرة في زمان معيـن، بل تعمّ الماضي والحـال والاسـتقبال، فليس المراد هنا "أوسـعناها" أو "نوسـعها الآن" أو "سنوسـعها في المسـتقبل" فقط، بل المراد -والله أعلم- عموم الكل، أي إنَّ توسيعنا لها ما زال مستمرًّا على الدوام وبدون توقُّف منذ بنائها... وقد

كَشَف عالِمُ الفضاء "هبل" *(Edwin Hubble)* سنة (١٩٢٢م) أن المجرات -باستثناء أقرب خمس أو ست مجرات- تتباعد عن الأرض بسرعة متناسبة طرديًّا مع المسافة بينها وبين الأرض، وحسب ما قاله "هبل" فإن السحابية (السديم) التي تبعد عنا مسافة مليون سنة ضوئيّة تبتعد عنّا في سنة واحدة بسرعة (١٦٨) كم، والتي تبعُد عنا بمسافة مليوني سنة ضوئية تبتعد عنا في السنّة الواحدة ثلاثة أضعاف ذلك... وهذا يدلّ على أن الكون في حالةِ تَوَسُّعٍ *(expansion)*، كما ادّعاه عالِم الرياضيات البلجيكي الراهب "جورج لومتر *(Georges Lemaître)*"...

وقضيةُ "توسُّعِ الكون" التي لا تزال تحتفظ بمكانتها في المحافل العلمية قد عبَّر عنها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا... وكان يجدرُ بكافة المحافل العلمية وعالَم المعارف والعلوم أن يعلنوا تَتَلْمُذَهم على يد القرآن فيخرّوا سجَّدًا حائرين أمام عظَمَةِ هذه الحقيقة العلمية، ولكن -يا للأسف- ما كان منهم إلا أن أصرُّوا على كفرانهم وجحودهم.

٧- كُرويةُ الأرض

يقول الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (سورة الزُّمَر: ٥/٣٩).

شكلُ الأرض كرويٌّ مفلطحٌ عند القطبين، والتكويرُ في العربية يعني لفَّ الشيءِ على شيءٍ دائريّ مثل تَكْوِيرِ العمامة، والدورانَ حول دائرة، فمعنى الآية -والله أعلم-: يلفّ الليلَ على النهار والنهارَ على الليل، فـ"التكوير" يُعَبِّر عن كرويّة الأرض.

وفي سورة النازعات: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٣٠/٧٩)، و"الدَّحو": البَسْط، ومنه: "الأَدْحِيَّةُ أو الأُدْحُوَّةُ": الموضع الذي تبيض فيه النَّعامة، وفي اختيار هذه الكلمة إشارة إلى أن الله تعالى بعدما

وضع السماوات في نظامٍ معيَّنٍ، بَسطَ الأرضَ على هيئةِ بيض النعام أي بيضاوية، فالأرض كرةٌ مفلطحةٌ عند القطبين على هيئة بيض النعامة.

٨- انفصال السماوات والأرض وانفتاقُهما

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢١/٣٠).

في الفضاء سُدُم *(Nebuleuse)* كثيرة: فمنها ما هو شبهُ مائي لا شكل له، ومنها ما هو شبه دائري، ومنها المسطح واسع الأقطار، ومنها الحلزوني... إلى أشكال عديدة معروضة أمام الأنظار... وكما أن الله جلَّتْ قدرتُهُ قد جَعَلَ من هذه السدم الهائلة مجموعاتٍ نجميّةً، كذلك جَعل منها منظومةً شمسيَّة.

فمِن المحتمل أن منظومتنا كانت سَدِيمًا بخاريًّا، وعلى مرّ الزمن فَقَدَتْ هذه الكتلةُ الغازيةُ -بإرادة الله تعالى- حرارتَها فانكمشت، وزادت سرعةُ دورانها، وبسبب زيادة سرعة الدوران وبتأثير قوَّةِ الطردِ المركزيّ هذا تفكَّكت الكتلة الأصلية الحلزونيةُ الشكلِ وانقشعت، فخلق الله تعالى الكواكبَ السيارات من هذه الأجزاء، فبتأثيرٍ من جاذبية الشمس التي هي في الوسط جعلها تدور حول الشمس، وجعلها تدورُ حول أنفسها أيضًا.

فـ"الرَّتْق" في اللغة: الضمّ والالتحام، وهي توحي بمعانٍ: "الكتلة المائعة، المادة اللَّزِجَة، المادة التي يجذب بعضها بعضًا"، وحينما يقال: إن السماوات والأرض كانتا كُلًّا مجتمعًا، في حالة مائعة أو غازية، يكون المراد بـ"فَفَتَقْنَاهُمَا": فتحناهما وجزَّأناهما وفصلناهما عن بعضِهما.

وكلمةُ "فتق" تشير أيضًا إلى أن السماء كانت جافَّةً لا تُمطِر، والأرض قاحلةً لا تُنبِت، ففتقهما؛ أي فتقَ السماءَ بالمطر والأرضَ بالنبات بإنشاء

علاقة بينهما، فجَعل الأرض مُنبِتةً ملائمةً لعيش الأحياء عليها، والسماء ممطرة مانحة.

و"الكافر" هو الذي يَكْذِب تجاه وجدانه وضميرِه، ويَكبت استعداداته وقابليّاته، ويتناقض مع قلبه... ومن المحقق أن القرآن الكريم حينما يقول: "الَّذِينَ كَفَرُوا" فإنه لا يقصد بذلك أولئك الكفرة الذين عاشوا قبل أربعة عشر قرنًا فقط، الذين كانوا عاجزين عن رؤية مَواطِئِ أقدامِهم، ولم يكونوا قد خرجوا خارج حدود الصحراء، وكانوا يحاولون أن يفهموا عالم النجوم بالاعتماد على مجرد المشاهدة بالعيون، فإن إنسانَ ذلك العصر لم يكن له أن يفهمَ من هذا الكلام معنًى في مستوى ما يفهمه إنسانُ عصرِنا، فـ"الَّذِينَ كَفَرُوا" في الآية تتناول كفارَ عصرِنا الذين يتعامَوْن عن الحقائق أكثرَ من كفارِ تلك العصور.

٩- خَلْقُ كل شيء من الماء

ويقول الله تعالى في الآية نفسها: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٠).

إن الماء هو أهم عنصر في خلق الحيوان والنبات، بدءًا من أصغر خليّة وسلاسلِ بروتيناتها، وانتهاءً بأكبر أشجار الصنوبر بـ"كاليفورنيا"، ولا يمكن تصوُّر الحياة بمعزل عن الماء، لأنَّ الحياة -بأمرٍ مِن الحي القيوم- تكونت حول المياه.

إن القضايا التي تَطَرَّقْنا إليها آنفًا -ولو بشكلٍ وجيزٍ- تؤكِّد حقيقةً واحدةً، وهي: أن الله جعلَ الكونَ يتحدَّثُ عن نفسِهِ، وجعلَ القرآنَ ترجمانًا له.

ب. القرآنُ مفتاحُ خزائنِ الأسماء الإلهية

إن القرآن الكريم كما أنه ترجمانٌ للآيات التكوينيّة، كذلك يَكشِف عن الأسماء الإلهية المكنونة في السماوات والأرض ونَفْسِ الإنسان... أي يُظهر لنا كيف وأين يتجلّى ويتموَّج كلٌّ من أسماء الله الحسنى، أيُّ اسمٍ يتجلّى على الإنسان، وأيُّ اسمٍ على التراب، وماذا وراء مختلف الحوادث الجارية في الكون... نعم، القرآن يكشف كنهَ هذه الأمور ويُبَيِّنُ أن وراءَ كلٍّ من ذلك اسمًا من الأسماء الإلهية.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/٢٢).

لا يستطيع أن يؤَمّن لنا المُقام في هذه الدار إلا من يَعرِفنا مِن كِلا الجانبين؛ إذ إنَّ لنا علاقة بعالَمَي الغيب والشهادة، أي بما يُعلَم وما لا يُعلَم، وما يُبصَر وما لا يُبصَر، وما يُشعَر به وما لا يُشعَر.

"هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ"، فكم هناك مِن الذين يحتاجون إلى الرزق وإلى رعاية الله وعنايته والتغذّي من معينِ نِعَمِهِ، فهؤلاء يتغذَّون من رحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، ونلاحظ رحمانيّةَ الله ورحيميّتَهُ في تَغَذِّي الأجنّة في أرحام أمهاتها، وشقِّ النبات لوجه الأرض الصلب، وسبرِ بعض أنواع الجذورِ بطنَ الأرضِ وضربِها في الأعماق، وأيُّ شيءٍ استمدَّ قوَّتَه من الله فإنه سيشُق كلَّ ما يعترض طريقه شقًّا، ويواصلُ مسيرته مردِّدا: "الله".. "الله".. فالقرآن المعجز البيان هو الذي يبين لنا كلَّ هذا.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ (سورة الحشر: ٥٩/٢٣) أي الذي بيده نظام الكون، ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي إن الكونَ تَسودُه عمليةُ تنظيفٍ شامل؛ فالتحولُ الكيميائيّ الذي يجري في ملايين الحيوانات الميتة، والغازاتِ في الهواء، وامتصاصُ الأشجار لِما يُخرجه الإنسانُ، واستنشاقُ الإنسانِ

لما تُخرجه الأشجارُ، وتدخُّلُ البحارِ في الأمر حينما يختلّ التوازن، وكونُ مياه البحار مالحة، والحفاظُ على نظافة الأرض والسماء... كلُّ ذلك من تجلِّيات اسم الله: "القدوس"، والقرآنُ المعجز البيان يُبَيِّنُ لنا قانونَ النظافةِ السائدَ في الكون بربطِه باسم الله: القدوس.

﴿اَلسَّلَامُ﴾ إننا نشاهد في الكون سلامًا شاملًا وهدوءًا واضحًا، ومع أن الكون في ظاهر أمرِهِ يُخيِّل إلينا ما يخيِّل وكأنَّ هناك صِراعًا وصِدامًا بين الموجودات؛ إلا أن الحقيقة هي أن النباتات تُنْجِدُ الحيواناتِ كما أن الحيوانات تعِين بني الإنسان، وفي هذا الموقع يبدو وكأنّ الإنسان عَقَدَ صلحًا مع جميع الكائنات، فالقرآن يشرح لنا هذا اللغزَ باسم الله الجليل: "اَلسَّلَامُ"... فالكون الذي يعتمدُ على هذا الاسم يكون مَحلًّا للسلام.

﴿اَلْمُؤْمِنُ﴾ إن الله تعالى قد أسَّسَ من خلال هذه التعاقدات والمصالحات أمنًا، ومَنَحَه للكلِّ، فكما أنه بالإيمان أَنزل السكينةَ والطمأنينةَ في القلوب المؤمنة؛ فكذلك أَوجد نوعًا من الأمن بين بني الإنسان، فبذلك يَثِقُ الناس بعضُهُمْ بِبَعْضٍ، وفي كلِّ الكون أمنٌ سائد؛ فمِن المَلَكِ إلى السَّمَكِ، ومن سدرةِ المنتهى إلى أعماق الأرض هناك أمنٌ سائدٌ، ونحن نلاحِظُ أن هذا معتمِدٌ على اسم الله: "المؤمن". نعم، إننا لا نتعرف على الأسماء التي تكون وراء ما يجري في الكون من الأحداث إلا من خلال القرآن "الترجمان"، ترجمان الأسماء الإلهية والترجمة الأزلية للآيات التكوينية.

ج. القرآن ترجمان للصفات الإلهية

إننا إنما نأخذ المعلومات الكافية حول ذات الله وصفاته وشؤونه من القرآن، فهو يحوي مئاتٍ من الآيات بهذا الصدد، نكتفي بذكرِ بعضِها:

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخْلَاصِ: ١١٢/١-٤).

أي قل: إن الله واحدٌ أحدٌ، وكلُّ شيءٍ مدينٌ له في وجودِهِ وبقائِهِ، وكلُّ العوالم محتاجةٌ إليه ولكنّه لا يفتقر إلى أحدٍ، وهو الموجود الوحيد الذي يَلجأ إليه ويَستعين به كلُّ موجود، والنظام بفضله يقوم، والكون على قيُّوميَّتِهِ يستند؛ ولولا قيُّوميَّته لانقلبَ النظامُ رأسًا على عَقِبٍ، والإنسان في كلِّ أحوالِهِ محتاجٌ إليه، وإذا لم تُسَدَّ حاجاتُه من قِبَل الله تعالى فإنه ستخمد ناره، ولن يبقى على وجه الأرض شيء، إن الله تعالى ليس والدًا لأحدٍ، وليس أحدٌ والدًا له، ولم يكن له ندّ ولا شريك ولا نظير.

والقرآن ببيانه هذا يعلِّمنا أهمَّ القضايا المتعلقة بالألوهية، ولولاهُ لَتورَّطنا إما في عقيدة "الروح الكلي" التي تورط فيها الأفلاطونيون، أو انجرفنا إلى عقائد أخرى من أمثال عقائد الإشراقيين، أو اتخذنا الله ﷻ -كما فعل النصارى- أبًا لأحدٍ وزوجًا لآخر تعالى اللهُ عن ذلك كله علوًّا كبيرًا، ولكِنَّنا بفضل القرآنِ المعجزِ البيانِ أحرزنا أحكَمَ العقائد وأرصنَها وأصلبَها وأرسخَها حول الذات الإلهيّة ﷻ.

د. القرآن تفسير للشؤون الإلهية

إنَّ أحسن مَن يُفسِّر الشؤون الذاتيّة الإلهية هو القرآن أيضًا، يقول مثلًا: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/٣٦-٣٧).

فالقرآن يتحدَّثُ في هاتين الآيتين وفي غيرهما عن مثل هذه التصرفات التي تَعجِز العقولُ عن إدراكها، على أنها شؤونٌ للذات الإلهية، ولا قِبَلَ لنا أن نعرفَها وندركَ كنهَها لولا القرآن.

هـ. القرآن خارطةٌ مقدَّسةٌ لعالم الآخرة

إن القرآن المعجزَ البيانِ كتابٌ فريدٌ لا نظيرَ له في عرض عالم الآخرة على أنظار الناس أيضًا، فالمراحل الأخروية تُعْرَض في القرآن صفحةً صفحةً كلٌّ في مكانها المناسب، بأسلوب جذَّابٍ وآخذٍ بالقلوب والألباب، ولكن لا يتَّسع هذا المقام لِسَرْدِها كلِّها.

فسورة الحاقة مثلًا تتحدَّثُ عن الساعة التي تأتي فيها تلك الداهية فتَقرع الهامات، فتبدأ السورة بـ﴿**الْحَاقَّةُ ۞ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/١-٢)؛ فتستهلّ بموسيقى القيامة التي يدوِّي صوتُها في الأسماع، وتأخذُ بيَدِ الإنسان فتذهب به إلى الوقت الذي تقوم فيه القيامة، ثم تُصوِّر الجبالَ المدكوكة تصويرًا بديعًا تجعلُ الإنسان معه وكأنه يشاهدها بالعيان، ثم يبعث الله بني الإنسان، ويضعُ الميزان، ويزنُ الحسناتِ والسيِّئات، فمن رجحت حسناتُه يَحظَى بحياة سعيدة، ومن رجحت سيِّئاتُه يُلقَى في النار...

والقرآنُ إذ يَعرض هذا المشهد على أنظار الإنسان يرسُمه في صورةٍ يَعجزُ عن تصويرها أحذقُ الفنانين... وعندما يقول: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/١٨) يَعْرِض لأنظارِ الإنسانِ ما يحاول الإنسانُ أن يخفيه عن الآخرين، فيجعلُه يخجل أمام ما يقترفه من الآثام... وفي الوقت نفسه يدفعه إلى أن يأخذ بالحيطة والحذر حتى لا يتعثَّرَ ولا ينزَلِقَ.

إنَّ مَن أهدرَ عمرَه كلَّه ولم يسجِّل في صحائفِ أعماله شيئًا نافعًا فإنه سيؤتَى كتابَه بِشِمَاله أو من وراءِ ظهرِه وسيقول في ذلك اليوم: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي**

﴿مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّة: ٦٩/٢٥-٢٩) ولكن شيئًا من أمانيّه لن يتحقَّق، وبالمقابل من سجَّل في كتابه أعمالًا صالحةً فإنه سيؤتى كتابَه بيمينه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ ۞ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّة: ٦٩/١٩-٢٠)، وهذا أبلغ ما يعبَّر به عن فرحة الإنسان ونعيمِه...

أجل، إن القرآن الكريم يصوِّر مَشاهد الآخرة بحسابها وميزانها، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها... تصويرًا في غاية الدقّة والروعة لا يفوقه بذلك أيُّ تصويرٍ وتعبيرٍ.

و. القرآن كتابُ شريعةٍ

إن القرآن الكريم كتابُ شريعةٍ من حيث بيانُه للأحكام الدينية، وتوضيحُه بجلاءٍ للحلال والحرام، وتناولُه وتحليلُه لمنظومةِ الحقوق والقوانين المتعلّقة بالأسرة والمجتمع والدولة وبالأفراد الذين هم اللبنة الأساس للأسرة والمجتمع والدولة.

ز. القرآن كتابُ حكمة

لا أحدَ من المفكّرين والفلاسفة لم يتحدَّث عن حقيقة الوجود ومناسبةِ الموجودات فيما بينها، ولقد تناول الفلاسفة -من أول فيلسوف إلى آخره- هذه القضيّة وعالجوها، ولكن هناك بون شاسع بين تناولهم لهذه الحقيقة وشرحِهم لها، وبين شرح القرآن وبيانِه.

نعم، هناك فرقٌ واضحٌ؛ لأن القرآن كلامُ مَن أَبدعَ الوجودَ وأنشأه، وأنشأ العلاقة بين الأشياء والموجودات... فبينما يتحدَّثُ غيرُه تعالى عن هذه الأمور بالفَرَضِيَّات والنظريّات؛ يبيّنها القرآن بأسلوبٍ قطعيّ، وبينما تنطوي مقولاتُ هؤلاء على تناقضات عدّة تُشوّش الأذهان؛ نلاحظُ أن القرآنَ مبرَّأٌ من نقاط ضعفٍ من هذا القبيل.

ح. القرآن كتابُ دعاء

عندما نرفع أكفَّ الضراعة إلى مَلِك الملوك فندعوه بتعبيرات القرآن المعجزِ البيانِ نفسِهِ؛ نكون قد رفَعْنا سُؤْلَنَا إلى الله بكلماته هو... والرسول الكريم ﷺ كذلك كان يسأل ربه بلسان القرآن، فالقرآن كتابُ دعاءٍ، ولا نظيرَ له في ميدانِ التضرُّعِ إلى الله تعالى.

ط. القرآن كتابٌ مقدسٌ نَزَل من العرش الأعظم

إن للهِ ﷻ عرشًا وهو العرش العظيم: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ١٢٩/٩)، ولكل شيءٍ عرشٌ أي غايةٌ تنتهي إليه، ولكلٍّ من الصفات عرشٌ يتمثَّل فيه في أعلى مراتِبِهِ، ولكلٍّ من أسماءِ الله وصفاتِهِ عرشٌ أي مرتبةٌ عُليا، فالقرآن نَزَلَ من العرشِ الأعظمِ ومن أعلى وأعظمِ مراتبِ الأسماء الحسنى، فهو أسمى أنواع كلام الله تعالى، نزلَ على أكملِ إنسان، لتبليغه إلى أكمل مجتمعٍ من البَشَرِ.

والقرآنُ من حيث إنه نزل من العرش الأعظم، ومِن أعظمِ مرتبةٍ لكل اسمٍ من الأسماء الإلهية، يجدر بأن يسمَّى "كلام الله" بحقٍّ، وحينما يُطلق "كلام الله" فالذي يتبادر إلى الفهم هو القرآن لا غير.